

السَّفِينَة جبرا إبراهيم جبرا

ثلاثة مقاطع من رواية قيد الكتابة

البحر جسر الخلاص . البحر الطريّ ، الناعم ، الاشيب ، العطوف .
وقد عاد البحر اليوم الى العنفوان . لطم موجه ايقاع عنيف للعصارة التي تقذف في
وجه السياء بالزهر والشفاه العريضة والاذرع الممتدة كالشراك . البحر خلاص جديد .
الى الغرب ! الى جزر العقيق ! الى الشاطئ الذي انبثقت عليه ربة الحب من زبد البحر
ونفت النسيم . وما كنت لاعرف ان (اكاد لا استطيع ان اقولها !) ان لمى ، لمى نفسها ،
لمى المسكينة ، لمى الباكية بعض الليالي ، الغادرة باهلها من اجلي ، الضاحكة ، الراكضة
على عيني ، لمى ستكون ايضا هنا . في هذه السفينة ، حولتها عشرة آلاف طن ، يونانية ،
تحوك شبكتها ثم تنقضها بين بيروت والاسكندرية ولياسول وبيربوس وجنوى ومرسيليا .
لعبة خطيرة ! فانا هنا للهرب . انا هنا لانني لم استطع ان اجعل من لمى بحري وزورقي
ومغامرتي . لمى لم تكن لي . الا ساعات قلائل . ساعات اعرفها كلها دقيقة دقيقة ، قبله
قبلة . ولما فككت ازرار قميصها ، زرا زرا ، في عمّة ذلك البيت الذي اعارني اياه
صديقي ليوم واحد - اعرف تفاصيل ذلك كاغنية من اغاني الراديو . طعم شفيتها ما زال
على شفتي ، تحسسه احيانا بلساني ، اخشى تلاشيه مع الايام : كان الذي بيني وبين لمى
حيلا لا تعينه الالفاظ ، ولا المسات ، ولا العقل . ضربا من الكينونة واللاكينونة . اشبه
بان تقول لي عينان في رأسي ، ولي انف ولي فم - ولكنني لا ارى ، ولا اسم ، ولا اتكلم .
ولمى ، ها هي لمى ، مع البحر ، مع بيروت ، مع حزيران ، مع ركاب الدرجة الثانية ،
مع زوجها . واذا كانت مع زوجها ، فما نفع البحر وبيروت وحزيران وكل هؤلاء الركاب
المرحين الصاخبين ؟

كانت هناك فتاة ايطالية عائدة من لبنان . امرأة في حدود الثلاثين (زعمت انها في
الرابعة والعشرين) ، ادعت انها هاربة من زوجها . لقد اوصلها بنفسه الى الباخرة ، ولما
زمرت الباخرة ، وجعلت تنزلق ، وتستدير ، وتتناءى عن الرصيف ، صمتت على انها
هاربة . زواج دام سنة ولم يترك لها ذكرى واحدة تناغيا ، قالت اميليا ، سوى ذكرى
منظر الجبل الاخضر الازرق المتلألئ فوق بيروت . « أقفهم ؟ الذكرى ذكرى منظر ،
لا ذكرى عاطفة . ذكرى بلد ، لا ذكرى انسان . تعلمت الانكليزية في بولونيا . وقضيت

مدة في لندن. ذكرى بلد، لا ذكرى انسان. تركت زوجي وهو يظن انني ساعود. لن اعود. شكراً». تناولت السيكرة مني، فاشعلتها وياقتها ديكولتيه، فانزلت عيني دون ارادة مني الى ما بين نهديها المحصورين في السوتيان المشدود. ثم اشعلت سيكراتي، واميليا فرنيزي تتكلم، نصف مغضبة، نصف فرحة بتفريغ ما في قلبها. كنا متكئين على درابزين الباخرة، ساعة العصر، وقد دنت الباخرة من الجزر اليونانية المنبثة في كل اتجاه. واكثر الركاب في قبولة ما بعد الظهر. وعماء قليل سيخرجون من قمراتهم الضيقة خروج الحمامات من اوكارها، او خروج الفئران من اجحارها. بعض الوجوه تذكرك بالطيور (وبعض الايدي الشمعية المستدقة الانامل، الصدفية الاظافر، تذكرك بعصافير الكناري)، بعضها يذكرك بالقوارض، بالخلد، بالنسناس، وبعضها بالخضار. هناك وجوه كالقرنبيط، ووجوه كالبلاذنجيات. واحيانا تبدو الوجوه، بخدعة بصرية، كوجوه الملائكة! اما وجه اميليا فكان وجها من وجوه الجحيم، يذكرني دائما بالشر. في العينين الزرقاوين لمعة حادة تؤكد ما في الشفتين الكبيرتين من غدر صريح. انه وجه اقرب الى استدارة وجه الطفل، مما يؤكد انه غير وجهها الحقيقي. لان في العينين والشفتين، رغم ابتسامها المستمر، صلابة وعنفا. فهي كأنها تقول: ان تأتيتي، فعلى مسؤوليتك!

ولكنني استبق الحوادث. اغلب الظن ان هناك علاقة ما بين وجه اميليا فرنيزي وبين وجه لى حين رأيتها مع زوجها الدكتور فالح حسيب بين الركاب، والباخرة بعد راسية في مرفأ بيروت. وقعت عليها عيني بفجاءة الناظر الى حجر ضخم يهوي عليه من احد السطوح، فانسحبت في الحال من مرمى الخطر. لقد غدرت بي. لقد لحقت بي الى المكان الوحيد الذي كنت اظنه في مأمن منها. خرجت ما بين جموع المتكئين على الدرابزين، الملوحين، الصائحين، الحالمين، وذهبت الى الناحية الاخرى من السفينة، وانا اقول: أصدفة هذه؟ أتصميم؟ أملاحقة؟ أماغظة؟ أما كفانا ما فعلنا وقلنا قبل ان نتزوج؟ صدفة ولا ريب. صدفة لعينة. يجب ان اتجاهل الامر. ما عدت التحمل النساء. اريد الخلوة. اريد الا يعرفني احد باسمي، او وجهي. واحدا من مليون. عابر سبيل يصطدم به المارة ولا يرونه. ولكن لى كانت قد رأنتني في تلك الهنيئة الخاطفة. ابتسامتها رققت على وجهها كله: ووجهها رغم سمرته فضاح يصرح بما يستتر وراءه. عيناها لا تعرفان كتمان السر. رموشها السوداء تكحل الحدقتين واذا هما كعيون المنحوتات السومرية القديمة تفيضان عطفًا، وشوقًا، ومباشرة. لا، لم يكن وجهها بالوجه الخاتل. وليته كان. ان كان لا بد من مغامرة مع امرأة، فليكن وجهها وجه اميليا. انه وجه دنيوي، ارضي، فيه المكر الثعلبي الذي لا بد منه لامرأة مغامرة. اما وجه لى الصريح، المباشر، الناطق بكل ما لديه في نظرة واحدة، فهو وجه المأساة. انه الوجه الذي يلاحقك الى

الابد ملاحقة الشهوة والحزن .

وقد لاحقني هذا الوجه . انساها اياما ، اشهرا ، فبساغتني ويغرقني في غمرة من الحس العنيف بعد الحذر والتفاهة . ثم يتركني في اصيل من النور . انها عودة حب كان كالرؤيا للنبي ، عالما من الوهج واللون واللذة تجعل من الجسد حبسا يدوم في كأس من الخمر . غير انني ، ذلك اليوم ، عندما رأيتهما وانا اقل ما اكون تهيؤا لرؤيتهما ، قنيت لو لم تكن هناك ، لو انني استطيع اعادة سلم الباخرة الى المكان الذي يصله بالرصيف ، واهرب . لقد هربت ، وما هي كالجدار ، كالبحر ، كالمارد ، امامي .

في الحياة غصات كثيرة . فيها الموت . وفيها المرض . فيها الخيبة بالابناء . وفيها الخيبة بالآباء . فيها الشمس التي تحرق القفا ، والبرد الذي يشل الاصابع . فيها الموت والقتل وخيانة الصديق . ولكننا فتحملها . ان شرا وان خيرا نتحملها . ما دمنا لا نستطيع الانتحار ، فلا بد من تحملها ، ولا بد من الادعاء بالجلد والبطولة في تحملها . ولكن الغصة الكبرى هي هذا الذي يعجز عنه التحديد . هي ان تقع في هوى صاحبه بين يديك ، ولا تناها . تنال الف امرأة ، وتبقى تلك الغصة في حلقك . وتلاحقك الحسرة ، تباغتك مع الوجه الشهي المقتحم عليك الحذر وتفاهة العيش ، وترى الرؤيا من جديد ، وتستجد الحسرة الاليمة . الموت غصة ، وهذه غصة اخرى .

في مساء ذلك اليوم ، بعد ان اقلعت السفينة ، وتأملنا مباني بيروت تحتضنها جبل لبنان وهي تتناهى ، وتعبنا من الاتكاء على الدرابزين ، واستسلمنا للبحر اخيراً حين اختفى في الافق آخر اثر لليباسة - في مساء ذلك اليوم ، حين راح الركاب يتعرفون على قمراتهم الضيقة ، ويتعرفون بشركائهم فيها ، ويبدلون ثيابهم ، ويتهيأون للعشاء ، وجدت ان القمر التي تجاور قمرتي ينزل فيها - الدكتور فالح حسيب وعقيلته . لقد رأيتهما يدخلان ، وانا اخرج . بل ، انها وقفا بالباب :

« عصام ؟ اي والله عصام ! »

هتف الدكتور فالح . واكمل :

« لمى ، شوفي ! عصام السلمان ! »

لمى (بلهجة مسرحية) : « من ؟ عصام ؟ »

انا (بلهجة مسرحية ايضا) : « شلون صدفة ! مرحبا دكتور . مرحبا لمى . »

(شلون حظ !) مصافحات سريعة .

الدكتور : « ها ، ان شاء الله الى ايطاليا ؟ »

انا : « لا والله ابعد . الى لندن . »

لمى : « شلون صدفة ! ستجدنا في لندن ايضا . »

وضحكا وضحكت . ومشيت . وسبيت . ولعنت . لن يكون بيني وبين لى الا جدار ! ولكنه من حديد . ويدعم الحديد زوج . ويدعم الزوج كل شيء . ولا يدعمني الا نظرة اخرى دفقت من عيني لى بالتوق ، والحزن ، والخيبة .

سمعت جهدي ان اتجنبها ذلك المساء وافلحت . في قاعة الطعام رأيتها ، فاقعدت كرسيا اتاح لي ان ادير ظهري لهما . ونزلت الى قمرتي مبكرا بعد العشاء . وكان شريكى فيها تاجرا من دمشق ، ساحر اللهجة . لم يكن كثير الكلام ، ولكنه اذا تكلم احسست بانك تجاه مواضيع الحياة غرّ فجّ اذا قست نفسك به . انه يعرف لا ثمن كل شيء فحسب ، بل كيف واين ومتى يجب ان يستعمل . تكلم عن الصابون ، وعن العطور ، وعن النايلون . اما انا فلم استطع الا الكلام المبهم عن اعجابي بحنائن دمّر ، والجامع الاموي ، والبوطة في سوق الحميدية . وضحك التاجر ، لانه هجر اكل البوطة في سوق الحميدية منذ ان كان طالبا في التجهيز . وتعارفنا : عصام السلمان ، شوكت ابو سمرة . وما كاد شوكت ابو سمرة يندس في فراشه المخشخش الشراشف حتى نام .

وانا ايضا نمت في الحال . ولكنني افقت وكأني لم انم ، وليس في عيني اثر للنوم . افقت على صوت المرح يصفق جنب الباخرة صفقا نظما مداعبا . ووش وش . . . ووش وش . . . ثم سمعت حركة ، بل احسست بها بذراعي - حركة مبهمه كأن صوتها آت عن طريق الكوة المستديرة مع صفق الموج . ولكنني لم اخدع نفسي طويلا . فالحركة هي وراء الجدار الذي هو لصق ذراعي . . . الحركة من لى وزوجها . ما اوهى هذا الجدار ، وكنت حسبته من حديد ! يا الله . . . انها يتغازلان . لى تهدر جمالها ، تسفح انوثتها ، تعطي من شفقتها ونهديها في الطرف الآخر من الجدار . . . وقفزت كالمدوغم من فراشي . كيف اقضي الليل على مسمع من كل هذا - من لى ، لى . . . ولبست ثيابي بسرعة وخرجت الى ظهر الباخرة ، ريثما تنتهي نزوة الحبين وراء الجدار ، ريثما اسحق بصورة هذه المرأة وراء عيني .

بعض التجارب يجعلها المرء طيّا اهابه كالمرض . كقرحة لا تئمت ولا تندمل . ويجابه المرء الايام والتجارب الجديدة ، والقرحة في احشائه تستكين وتهيج . واذا هاجت فلا بد من الدواء المخدر ، الذي لا يقضي الا على الالم المؤقت ، ولكنه لا يقضي على امكانية الالم وتهديده المستمر . ويصبح الالم جزءا من الكيان ، يعايش القلب والذهن ، ويبدو احيانا ، على نحو يناقض المنطق والعقل ، كأنه فرح مقيم ! كلنا عرضة لهذه الماسوكية العاطفية . ما دمنا نحمل التجربة كالمرض طيّا الالهاب ، فلم لا نتحايل عليها ونجعلها بمصدرا لاحلام اليقظة ، مصدراً للقصائد غير المنظومة التي تهدر في النفس على غير انتظار ؟ كان ظهر السفينة مهجورا الا من ثلاثة او اربعة كل على انفراد ، كل يحمل ، ولا ريب ،

مرضه على نحوه الخاص . لقد خرجت وانا العن ، خرجت والحقد يملأ البحر امام عيني -
البحر المظلم الرقيق ، الذي يصفق موجه الباخرة وشوشة ومعابثة .

كان القمر قد غاب ، فاسودّ امتداد اليمّ حولنا تحت بريق النجوم الكبار المتراسة ،
وايقاع الآلات في جوف الباخرة في ضرب وتير مسموع . وفي وسط الحقد العارم امامي
انقذفت لى ، لابسة عارية ، لست ادري . فهي في ثيابها ولكنني ارى كل جارحة في
جسمها . فالشتان الريانتان المعطرتان بالروج ، والثديان المنطلقان من القميص - انها هنا ،
امام عيني ، وراء عيني ، على بعد مني ، بين يدي . ونحن في سيارتي ، منطلقان مع الليل
الى خارج بغداد ، ويدها كالجيزر تغلّتي ، تلتف حول عنقي ، تهبط الى فمي ، تتغلغل
في قميصي . انعطفت بالسيارة عن الطريق العام الى حقل مهجور ، وسلطت ضوءها
لاستوثق من القاع البوار التي عزمنا على اللجوء اليها . وجعلت السيارة تصعد وتهبط على
التضاريس الترابية المضطربة ، ولمى تقول : « احذر السواقي . هذه الاراضي تشقها
السواقي ، خذ الحذر » . ولما توغلنا ما حسبنا فيه الكفاية ، اوقفت السيارة . ورحت
اقبل لى ، اقطع شفتيها ، ازرع في عنقها ، في صدرها ، وهي تقول : « انا مجنونة .
مجنونة . كيف رضيت بالحيء هنا . احبك . اعبدك . ولكني مجنونة . هذه اول مرة
وأخر مرة » . وفجأة شق الليل نباح عنيف . وبجركة لا شعورية انسحبت لى بعيدا
عني ، وادرت انا مفتاح آلة السيارة ، وطفرت بنا السيارة الى الامام . ورأينا رجلا ،
وقع عليه نور السيارة ، قادما من بعيد ، وحوله كلاب تنبح . فصاحت لى : « ادر
السيارة ، ادر السيارة يا عصام ! » ولما كان امامي نشز من التراب ، اضطرتت الى الرجوع
الى الخلف بغية الاستدارة ، واذا بالعجلتين الخلفيتين تسقطان بعنف في منخفض ، وتدوران
بشدة عبثا ، والسيارة كأنها مغلوطة الى الساقية اللعينة - لقد وقعنا في فخ . ورحت
ادوس مدوس البززين الى نهاية مداه ، فتجأر السيارة ، وتدور العجلتان الخلفيتان في
الساقية ، سدى . « مصيبة ، مصيبة ، مصيبة » ، جعلت لى تكرر . « ماذا يريد هذا
الرجل ؟ انا اموت خوفا من الكلاب ... » والكلاب تقترب مع خطى الرجل الوئيدة ،
ونباحها الحلقي الحقود يملأ الليل . واخيرا وصل الرجل . وعلى حين غرة اشعل مصباحا
كهربائيا ومض كمين بذيئة بين عيون كلابه .

ولماذا لا نتوقع من الغريب في ارض مهجورة في الظلام الا الاذى ؟ كان بإمكانه ان
يتصرف معنا تصرف الغول ، ونحن في الفخ ، وكلابه في شبه الذئاب . غير انه قال برقة
وعطف : « مساء الخير . عصيت ؟ » قلت : « مساء الخير . نعم عصيت » . لم يومض
المصباح في وجهينا ، بل نكس عينه الى الاسفل حين ادرك ان في السيارة امرأة ، وقال :
« بسيطة » . واتجه نحو مؤخر السيارة لينحص الوضع ، ثم عاد ، وقال : « لا فائدة من

محاولة الحركة . انا من عمال سكك الحديد . انتظر ريثا اذهب وآتي بمسحاة » . وانصرف مسرعا ولكن دون ان تسرع وراءه الكلاب التي كفت عندئذ عن صب زئيرها . فقالت لى : « واذا عاد بشيء غير المسحاة ؟ » فقلت : « أتريدى ان نترك السيارة ونهرب ؟ الطريق العام قريب . مشي خمس دقائق » . فقالت : « ولكنى اموت خوفا من الكلاب . لننتظر ، وليكن ما يكون » . وجاء الرجل بمسحاة ، لا بمنجبر ، وخرجت من السيارة ، ولكنه اصر على حفر التراب امام العجلتين بنفسه — الى ان اوجد امامها منحدرًا من ضفة الساقية ، وعدت الى السيارة ، وشغلتها ، فانطلقت بنا من الفخ . فتوقفت قليلا ، لاودع هذا المنفذ المجهول ، وتركت في كف يده بعض النقود حاول ردها . ثم قال كلمته الاخيرة : « ان كنتما تريدان متعة ، ففي الناحية الاخرى من الطريق بستان مفتوح ... في امان الله » . ودست على البنزين كالمجنون . متعة ؟ اية متعة ؟ وقالت لى : « مت من الخوف ، والله ! امسك بيدي . اترى كيف ترتجف ؟ وما ابردها ؟ متعة ! لعنك الله يا عصام » . وارتمت على كتفي ، والسيارة تسرع بنا عودة الى المدينة .

لقد برد هواء البحر . اكاد ارتجف . وحلقي جاف كالتبين . لعل البحر قد جعل يضطرب . جلست في احد المقاعد على ظهر الباخرة التي جعلت الآن تترنح ترنحا بطيئا خفيفا . حلقي جاف كالتبين ، كالرماد . وارتدت الاسترخاء في مقعدي ، والنوم ، رغم ذكرى الكلاب النابجة حول ذلك الطيف الطارق في الظلام . ما اشد اطمئنان البحر . في ترنحه هذا هدهدة لمن يريد النوم ويقوى عليه . للمى والف لى في الف باخرة عرض البحر . وبان في مقدم السفينة طيف آخر . طيف يتقدم في اتجاهي . رجل آخر لعله لم يقو على النوم رغم لولية البحر . وجاء الشخص وادار لي ظهره ، واتكأ على الدرايزين امامي . وفجأة انتبعت الى شعره الطويل . انها امرأة في بنطلون . وجاءني عبق من عطرها الدافئ خالط رائحة البحر الرطبة المالحة . وكانت تدخن . ولكنني استرخيت في مقعدي واغمضت عيني . وبعد قليل احسست بالمرأة تجلس في المقعد الذي بقربي . فاستويت في مقعدي وحييتها .

« نحن محظوظون » ، قالت بالانكليزية . « فالبحر بين بيروت والاسكندرية معروف بالاضطراب عادة . اترى ما اهدأه ؟ »
قلت : « نعم ، نحن محظوظون » .
« احب البحر . أتحب البحر ؟ »
« نعم . احب البحر » .
« ولكن ما هذه الاسفرتي الثانية بجرأ » .
« الى الاسكندرية ؟ »

« إلى جنوى . وانت ؟ »
« إلى مرسيليا ، ثم باريس ، فلندن » .
« انت محظوظ ! »

فقلت : « اعذرني ان سألتك : ألم تستطعي النوم ؟ »
فضحكت : « انني اعشق صوت الموج » .

كانت هذه المرأة اميليا فرنيزي . لقد بقينا نتحدث على هذا النحو ساعة او اكثر .
يستطيع الغرباء الحديث ساعات دون ان يعرف الواحد عن الآخر بعد ذلك الا بضع
اكاذيب . وهذا كل ما عرفته عني اميليا ، وكل ما عرفته عنها . ولكنني بعد ذلك لم
اشعر باليس في حلقي . لم اشعر الا بالبرد وبجاجة عنيفة الى النوم . اما لمي ، فلم انسها ثانية
واحدة . لقد نزلت الى قمرتي ، وكلتي خشية ان اسمع من وراء الجدار حركاتها ، انفاسها .
ولكنني لم اسمع شيئا قط .

التقيت بوديعة صباح اليوم التالي . لا اذكره الا وهو يتكلم . كان يتكلم الى
فتاة ، عرفت فيما بعد انها فرنسية ، اسمها جاكلين دوران ، والى رجل بدين عرفت انه
اسباني ، يدعى فرناندو غوميد . كان وديعة يتكلم بحجارة ، ويضحك بحجارة ، واذا
سكت ، بدا كل كلام آخر اشبه بالنقيق . كان طويلا ، تنحني كتفاه انحناء المتحمس لما
هو امامه ، وشعره الاسود الكث مصفف بعناية المتألق المهتم بظهوره . تحدث في الحال
بانه فلسطيني ، وتأكد حدسي عندما سمعت لهجته . لقد ذكرني بالكثير من الطلاب
الفلسطينيين الذين عرفتهم في انكلترا . فقد دهشت دائما لشيء واحد فيهم : حبهم للالفاظ ،
حتى ولو تكلموا بالانكليزية .

بعد ليلتي المتعبة ، لم اكن متحمسا للقاء احد . كنت في الواقع انظر حولي ، متوقعا ،
رغما عن نفسي ، ان ارى لمي تسير على ظهر الباخرة ، او كغيرها من المسافرين ، تستلقي
في مايوه السباحة على ظهرها في احد المقاعد . غير ان صوت وديعة عساف اوقفني .
وترامى الي بعض كلامه . احسبه كان ينكت . لست ادري . كان الآخرون يضحكون .
وقلت لنفسى : هذا رجل سعيد !

وبعد ذلك كان تعارفنا سهلا . واصبنا متلازمين ، اصغي الى حديثه وهو ينهمر ،
ينهمر دائما كالطر - كالطر في زوبعة لا تنتهي :

« ما عرفته قبل يومين وما تعرفه اليوم ليس واحدا . الحياة تسيل ، تجري ، تسابق
البشر . وهي كل يوم تغيرك . تأكل منك ، تقضم من حواشيك ، توسع رقعة الحذر في

قلبك . وكل يوم تضيف اليك ، وتضخمك ، وتصدق في قلبك مسامير المتعة والام .
ولكنك متغير ابدا . طفولتك ترافقتك ، ولكنها ما عادت جزءا منك . انها هناك -
بعيدة عنك ، مع ذلك الموج في اقصى الافق ، في الجزيرة التي تراها في بحر احلامك .
شاب مثلك يفعم صدره بخواطر الحب ، ولا ريب . فتاة عسلىة العينين تركتها في محطة
قطار ، او في سيارة تحمل اكياسا وحقائب . سمراء صوتها كاغاني الليل تسمع من بعيد :
لا بأس ، لا بأس . بين الخامسة عشرة والثلاثين ، قد تعرف عشر نساء ، وقد تعرف
خمس . لبعضهن نهود صغيرة كالتين الفج ، وبعضهن افخاذ كالرخام . بعضهن خلقت
غمامة من الرؤية ، وبعضهن ما زلن يعذبن العين بوجود حادّ ملحّ ملهوس . فانا من عشيرة
الرومانسين في قضايا الحب والجنس . واذا رافقتني في نابولي ، افهمتكم ما اعني ؟ انا الآن
في اجازة - في اجازة طويلة عريضة ، اجازة من كل ما كان يستعبدني ويستحوذ عليّ
حياتي المتأكلة . في نابولي - أتحمل نقودا كافية ؟ في نابولي ، ستعرف معنى الجسد . انه
معنى مخجل . لماذا ؟ لانه حيواني . الجسد هو الحقيقة الوحيدة التي لا يستطيع احد
دحضها ، وهو صلتك وصلتي بالوحوش ، بالدواب . ولم الكبرياء والاستعلاء والنفاق ؟ في
نابولي ، سنأخذ اربع نساء ، خمس نساء ، ست نساء - بقدر ما تتسع له غرفة النوم ، ونرى
العجائب . الحقيقة الواحدة . السأم الاخير . لان الحقيقة ، في الواقع ، تملة . انا دائما
افضل الكذابين . الكذابون ارستقراطيون . الكذابون هم ، على طريقتهم الخاصة ،
المتوردون . والتمرد دائما امر ارستقراطي . الحقيقة على كندرتك ! ها !

« هذا الصباح قلتها لجاكين ، هذه الفرنسية التي قصت شعرها لأغرسون . قالت :
أتريد الصدق ؟ قلت : الصدق ؟ ابدا . قالت : كفى مزاحا . فقلت لها : لا اريد الصدق
ابدا . اريدك ان تكذبي عليّ ؟ اكذبي عليّ باستمرار . في هذه الباخرة الصدق شحاذ ،
ناسك ، كافر ، طاغية ، ابن كلب ، لانريده . وليكن كلامك مثل قصة شعرك . تشبهين
بشعرك الولد . ولكن على صدرك ما يكذب ذلك . فضحكت وقالت بانكليزيتها
المحدودة : شتّ أب ! »

« في الواقع ، كل من يدعي انه يقول لك الحقيقة ، واحد من اثنين : اما انه واهم لا
يعرف ، او انه كاذب على كل حال . وما هي الحقيقة ؟ على كندرتك ! قلنا الصدق حتى
بجت حناجرنا ، وأضحينا لاجئين في خيام . توهمنا الصدق في امم العالم ، واذا نحن ضحية
سذاجتنا . وقد عرفنا ذلك كامة ، وعرفناه كافراد . ولذلك فانتني ، كفرد ، ما عدت
اكثر لما يقوله احد . لاهمني الا احساسني وحسني . عاش الكذابون المراءون
المحادعون ! على الاقل انا في منجى مما يدعون لاني ختمت هذا الفن . وكما قلت لك ، انا
في اجازة ارجو ان تطول سنة او سنتين . واذا استطعت مددتها مدى العمر . ولم لا ؟ انا

فوق الاربعين - لا يغرنك شعري الاسود - غير متزوج ، اخوتي في غنى عني ، ورغم التشريد والضياع ، كسبت من المال في الكويت ، وما ازال اكسب ، ما فيه الكفاية . الحمد لله . هذه سفرتي الثالثة الى اوربا ، وسأمتص منها كل قطرة . في الليل تنتابني ذكريات اليمية . اليمية جدا . وتنتابني رغبات . اليمية ايضا . كنت فيما مضى اجد متنفسا في تدوين الافكار . في كتابة الشعر . اي والله ، نظمت عشرات القصائد ! الفلسطينيون كلهم شعراء . بالفطرة . قد لا يكتبون شعراً ، ولكنهم شعراء ، لانهم عرفوا شيئين اثنين هامين : جمال الطبيعة ، والمأساة . ومن يجمع بين هذين ، لا بد ان يكون شاعرا . اتعرف القدس ؟ لعلك كنت صغيرا عندما التهم الوحش اليهودي اجمل نصف في اجمل مدن الدنيا . القدس اجمل مدينة في الدنيا على الاطلاق . قيل انها بنيت على سبع تلال . لست ادري ان كانت تلالها سبعة ، ولكنني ارتقيت كل ما فيها من تلال ، وهبطت كل ما فيها من منحدرات ، بين بيوت من حجر ابيض وحجر وردي وحجر احمر ، بيوت كالقلاع ، تعلو وتنخفض مع الطرق الصاعدة النازلة كأنها جواهر منشورة على ثوب الله . والجواهر تذكرني بزهور وديانها ، فاذا ذكر الربيع . واذا ذكر التمتع زرقة السماء بعد امطار الربيع . والربيع في القدس كان هو الربيع ، لانك تراه يحل في البلد ، كأنه مشهد غير المخرج على خشبة المسرح . فالجبل البلقع في الشتاء قد اخضوضر فجأة امام عينيك ، وحتى بيتك الصغير المتهدم عند منعطف الطريق ، حيث الحجارة المهلمة منذ آل عثمان ، وحيث الشجرة اليابسة ، يحس الربيع ، لان زهورا كعيون الاطفال قد نبتت بين الحجارة نفسها ، حول الجذع العاقر المسن نفسه . ولذا فان الليالي قد تأتيني بذكريات من القدس فاحزن ، واغضب ، وابكي . كنت مرة في فندق في الشام عندما فوجئت بمثل هذه الذكريات ، فبكيت ، واجهشت بالبكاء . فسمعتني جاري اعرفه ، فجاء يطرق الباب ويسأل ما الخبر ... فقلت : ابكي على ابي ، واممي ، واخوتي ، وما عدت اعرف الحجل .

« اي نعم . ما عدت اعرف الحجل اذا فاجأتني نوبة البكاء . والا لحولتها شعرا . ولكن يربك من يستطيع ان يصوغ كلاما خيرة ثلاثين سنة في مدينة هي اجمل مدن الله ؟ محاولتنا الابداعية ليست الا مسكنات مؤقتة . هي نوع من البكاء . ولكن لا شيء في الحياة يعوض عن الدموع السخينة الكبيرة . والزمن ، على كل حال ، شيء فظيع . في سيله الظالم لا يترك لشيء جدة او نضارة ، ولا يترك لك في النهاية ما يستحق القول . لقد داس الزمن على كل ما اراه بخف كبير ثقيل ، وطمس البريق والفتنة . ولو كنت رساما لرسمت ذلك - أتدري كيف ؟ بلطخة سوداء عريضة ، قد ابقعها في مكانين او ثلاثة بشيء من الاحمر . الزمن هو العدو . عش ، عش ، ابق في قيد الوجود ما استطعت ، ولن يكون لك غير ذلك . لطخة سوداء تملأ قماشة العمر ، مع نقطة هنا ونقطة هناك -

طفائف تعرض لك دون ارادة منك ، ولكن دون ان تحظى بتلك التجربة الضخمة العنيدة التي هي نتيجة الخيار والارادة .

« أتدري ؟ كان الانسان البدائي الذي يعيش على القنص في البراري اكثر حظا منا . كل يوم لديه اختيار اكيد ، مجابهة للخطر ، وهو دائما على شفا الكارثة . وما بقاؤه الا نصر يتجدد كل يوم . اما بقاؤنا ؟ ها ! اننا نبقي رغم انوفنا . وانا اعرف ذلك خير معرفة . انه بقاء سالب منفعل علينا ان نرضى به . ولا هو نتيجة لفعل منا . الحياة ، رغم كل هذه الفوضى الظاهرة ، نظمت المجتمع بشكل شامل هائل ، بحيث اصبحنا قادرين على العيش عيشة آلية ، ما علينا الا ان نحرك اذرعنا واقدامنا ، مسيرين بالطبع ، فنأكل - اي شيء - ونشرب ونتزوج وننجب الاولاد ونسعى والرأس قبل القدم الى الحفرة المحتومة . هذا هو التقدم . اشبه بتقدم الحالة المرضية . اما انا فأؤثر الحياة البدائية . لا اصدق احدا ، ولا ادعي الصدق لاحد . ابكي بعض الليالي ، ولكنني اضحك كثيرا . واحب النساء . من كل نوع . من كل لون . وارفض البقاء السالب المنفعل . في نابولي سنأخذ النساء بالجملة . ولن اكتب كلمة واحدة . لان الكلمات تزيد حدة انطلاقي . هل قلت ان الفلسطينيين كلهم شعراء ؟ انهم في الواقع تجار . لقد اقفلوا قلوبهم على الشعر ، وانصرفوا الى التجارة ، في كل مكان . وانا ، كما ترى ، واحد منهم . اسعى في سبيل القرش الف ميل . ولكنني ادوسه بقدمي في النهاية . المال على كندرتك !

« انا ، ان كانت لدي عاطفة حقيقية ، فهي عاطفة دينية . صوفية ان شئت . عواطفني تتحرك بموسيقى الكنيسة . فالالحان التي تتصاعد اليمه جريجة من حناجر المرتلين ، والحان الارغن الهادر في السقوف الشاهقة ، وهذه الاشارات الضارعة الخاشعة الى الله ورب الارباب وملكوت السماء وحمل الله الحامل خطايا العالم - هذه كلها تغمرني بما هو اشبه بالهستيريا من الانفعال : فانا اريد ان اتمزق عندها - اتمزق فرحا وطربا ، واسى وحزنا . لان الجمال حزين - اجمل ما في الحياة حزين ، والملائكة التي تحمل كؤوسا تملأها من الدم القاطر من يدي المسيح المصلوب جميلة - جمال مقدس ، ضارع ، خاشع ، ناضج الشفتين ، واسع الحدقتين ، وكله مضمخ بالدموع . في هذا الجمال المنعم الموزع بين اجواق كلاجواق المسرح الاغريقي ، ارى الحياة ، ارى حياتي ، ارى ما انجزت وما اخفقت فيه . واخيرا ، ما انا وانت الا هباء بين هذه الانعام . هباء في سديم الكون ، هباء لا يعني شيئا ويعني كل شيء .

« كنت في صغري انتشي بالصلاة ، ولكنني لما كبرت فصلت بين الصلاة وبين التقوى ، وتعمد الامر اذ اصبحت عواطف الصلاة والضراعة عواطف جمال وحب وموت . هذا البحر الرائق المغمر غير حقيقي . وغير حقيقية هذه الزرقة وهذا الانسياب وهذا الليل

الحاني على الدنيا كالعاشق السهران . انما الشيء الحقيقي هو ذكراي له . الذكرى تتحول الى ما يشبه الموسيقى . تباعد الوقائع عنك في دهاليز الزمن ، وتخلف امواج النغم في ذهنك . الكل زائل سوى هذه الامواج . لا مجازا ، بل فيزيائيا ايضا . وهذه الامواج هي انغام الفرح والاسى المرتبطة بالله والملائكة والقديسين ، وتندمج فيها انغام الحب والمتعة العنيفة الخفية . فيها ذكرى مياه ، اشد وقعاً - واشد ايقاعا - في حجرات النفس الفسيحة ، مياه حسبتها بجرا ، ولم تكن اكثر من مجرد بركة تتجمع فيها مياه امطار الشتاء خارج سور القدس - بركة السلطان . اقف على صخرة فيها انحسر الماء عنها ، وانظر الى الموجات التي تخلقها الريح حولها في المياه الخضراء ، فارى الصخرة تمخر فيها كما تمخر سفينتنا هذه المياه المتوسطة الزرقاء . كنت في الرابعة عشرة ، وكلي تحرق الى البعيد ، الى المستحيل ، اهرب من بيتنا وادمييه الكثار الى بركة السلطان لاقف على الصخرة المحلقة عبر محيطات الخيال . لقد كان مثلي ولا شك ذلك الذي اخترع بساط الريح . لم يكن قد غادر حبه المرصوص غرfa وابوابا وفقراء ونفايات وروائح في بغداد او القاهرة . فابتدع بساط الريح . وابتدع الرخ . وابتدع طاقية الخفاء . ورأى الحمام تقدم من الساعات القصية وتحط على برك من رخام ، واذا هي تنزع عنها الريش لتكشف عن صبايا حسان . كلها موسيقى . وباليه . ومستحيل . وتوق . وعبقريه الانسان الذي تحاول المدينة ان تستعبده . اريد ان احدث جاكلين عن هذا كله ، ولكنها لا تتقن الانكليزية ولا تعرف العربية وانا لا اتقن الفرنسية . ولا اظنها ستفهم حتى لو استطعت ان احدثها بالتفاصيل . تضحك لاقل كلمة . السفرة بالنسبة اليها نكتة بارعة مستمرة . تأكل كما لم تأكل لعشر سنين . ولا تحشى السمعة . ولن تسمن . في داخلها وحش نهم يلتهم كل شيء ، فتبقى هي على حالها من الجوع . والا فإين المرأة التي تستطيع في الثلاثين ان تحافظ على مثل هذين النهدين القائمين المتحدين ؟ وهاتين الساقين الصلبتين من الردف حتى القدم ؟ موسيقى . كلها موسيقى . والموسيقى مياه ، والجمال مياه انسابت فجمدت على اشكال هي مشتهى العين . والكل انغام .

« اظن اني اعرف السر . ايام الصبي كنت اقرأ كتبا كثيرة معظمها روايات مترجمة ، لا اتمت لحياتنا بصلة . فكان لا بد لي من الانطلاق كابطال تلك الروايات في الغابات ، التي لم توجد عندنا بالطبع ، تحت الامطار الهائلة ، في العواصف ، في الشمس المشرقة بعد الزخات الغزيرة على الاشجار . وقد امتطيت حصاني الذي عرفت فيما بعد انه شبه روزيناتي ، حصان دون كيخوتي ، لانني مثله رفعت سيوفا صارمة في وجه شياطين من الخيال ، والتقيت بحسان اقع في غرامهن من اول نظرة . كنت في لقاء مستمر مع حسناء محجبة ، تلاقيني في مقبرة خارج السور . ولست ادري والله حتى اليوم هل كنت فعلا

التقي هذه الحسنة التي ارى وجهها دائما وقد رفعت عنه الحجاب في غسق اشهب بين القبور ، ام ان الامر كله من مزاح الخيال . كنت اقص حكايتي معها لصديقين لي يأتیان من القرية مرة في الاسبوع ، كحكاية متسلسلة . كان ابوها عطارا في سوق العطارين في المدينة القديمة . اذهب اليه بعد ان امر بالصغار الذين يملأون السوق المسقوف طرقا وطينا ، وأراه بلحيته القصيرة وقبازة العتيق مستقرا كمومياء بين اكياس المساحيق الشذية . ذلك ابي ، تقول هي — وقد نسيت اسمها (ألعلمها اذاً من خلق الخيال ، لا غير ؟) . وتردف : ولو عرف باننا نلتقي بين هذه القبور ، لقتلنا كلينا واختصر مراسيم الدفن هنا ! كانت طالبة مدرسة ، سوداء الشعر ، سوداء العينين ، ووجهها المقدسي كوردة بعد المطر . او هكذا وصفتها لصديقي . فوجوه بنات القدس كلهن كالورود بعد رشات المطر . لست اذكر الآن كيف انتهى الامر بيننا . لا لشيء الا لانني منذ ذلك العهد احببت عشرات الفتيات ، ولكل منهن قصة اذكر على الاغلب بدايتها ، ولكن النهايات تختلط علي . ولكنني لا استطيع نسيان المقبرة . الحب على مرأى من الموت ! قوة الحياة تتحدى قوة الفناء : انها فكرة خطرت لي بعد ان كبرت ، ولا ريب . اظن انها امتنعت عن الهيم فجأة دون سابق انذار ، وانتهى الحلم . وبقيت ارى اباها وانا في طريقي الى المدرسة كل يوم ، واقول : ها ! هذا الرجل قبلت ابنته الجميلة مائة قبلة ، وهو لا يدري . عندما يكبر الانسان يزداد شره . تزول براءة مثل هذا الخاطر (ولم لا يقبل فتى يعشق الدنيا كلها ابنة شيخ يحتضر بين مواد عطارته ؟) ويحل محلها : هذا الرجل قبلت زوجته مائة قبلة ، وهو لا يدري .

« ولكثرة ما رويت لصديقي القرويين من تلفيقات الخيال الجامح ، انتقل صديقي ، كلاهما ، مع اهلها الى القدس مثلي . ولكن الحياة صنع يديك انت ، لا صنع غيرك . فاذا لم يتمتع بما تمتعت به في مراهقتي التواقة ، هل كان ذلك ذنبي ؟

« ولكن لعلها لم يقلا عني متعة ؟ ما اقل ما كان يكفيني للمتعة ! تلك المشاوير في شارع يافا ، او في متاهات الصخر والزيتون المحيطة بالمدينة . هل جلست مرة ، يا عصام ، تحت زيتونة هرمة ، على الارض الحمراء ، والشوك يكاد يحيط بك ، وكذلك الزهرات القلائل من الشقائق ، او ذلك الحنّون الاصفر الذي لم نعرف له اسما قط ، لان الفلاحين لم يسموه الا بالحنّون ؟ لك الله يا زيتونات الطالبية ، والقطمون ، والمصلبة ، والوادي المسترسل الى المالحة ... تحتك تركنا جزءا من حياتنا ، هبة ، وعربونا للعودة . تخرج الى العالم ، وترى الاشجار البواسق ، والبساتين المنمقة والغابات الملتفة ، ولكنها كلها لا تساوي غصنا معوجا واحدا من تلك الاشجار الغبراء المتباعدة ، في تلك الارض الصخرية الحمراء التي تلتقت قدميك كقبيلات العاشق ، وبانت كأنها تنتشر تحت جنبك اذ تضطجع

عليها كرائك الجنة . لعنة واحدة هي اوجع اللعنات : لعنة الغربية عن ارضك . سل الفلسطينيين . سل الفلاح الذي يذكر تجرّح قدميه على تلك الأرض كأنه يذكر لذة حياته الوحيدة ، كأنه يقول ان حياته ، بعد ان ابعد عن ارضه ، ما عادت حياة . هذا البحر الازرق يتألق ، غير مكترث ، غير حافل ، انا اعرف ذلك ، لانه يظن انه يجمع حضارات الدنيا على شطآنه . ولكنه يحمل ايضا لطعات من شاطئنا نجعله على هذا الألق ، هذا الحسن . انا احب البحر المتوسط ، واركب السفينة فيه ، لانه بحر فلسطين ، بحر يافا وحيفا ، وبحر هضاب القدس الغربية وقراها . فانت اذا صعدت هضاب القدس ونظرت غربا ، لن تعرف اين تنتهي الارض وأين يبدأ البحر واين يلتقي الاثنان بالساء . فهي ثلاثها متداخلة متازجة - ومثالة . هذه الزرقة هي الشيء الوحيد الذي يلطف من غربي . كأنني بها اتصل بارضي من جديد ، كأنني بها اعود الى بركة السلطان فاراها قد اتسعت وامتدت وفاضت انهرها وشلالات دافقة .

» في الصميم نحن وحيدون . حياتنا اشبه بالعب الصنيعة : علبة داخل علبة - وتتضائل العلب حجما ، الى ان نبلغ العلبة الصغرى في القلب منها جميعا . واذا في داخلها - لا خاتم ثمين من خواتم ابنة السلطان ، بل سر اثنان واعجب : الوحدة . وهل كانت بي حاجة الى ان اقتلّع من جذوري ويقذف بي بين الحوافر والبرائن ، بين لواهب الصحراء وزعيق المدن البترولية ، لكي اعرف ذلك ؟ القماش عريضة ، والسواد فيها كثير ، والبقع اللاءة قليلة متباعدة . الطالبة الهاربة من ابيها الى القبور انتقابل حبيبها لحظتين رهيبتين ضاعت في سواد القماش ، واعدود الى آلام كآلام الصليب ، في مأساة تتجدد ، فيقولون عني : انحطاطي ، ماكر ، يناقض نفسه ، يعبد القرش ، ما عادت ارضه تعني له شيئا . كأنهم يريدونني ان احمل حفنة من ترابها في كيس من ورق في جيبي دليلا على المي ، وانا احمل صخورها البركانية الزرقاء كلها في دمي ، في العلبة الصغرى التي في قلب العلب كلها ، مع وحدتي ووحشتي . كلنا وحيدون . كلنا نضم هذه الجوهرة بين الجوانح بعيدا عن العيون . نضمها مع شيء او شيئين ، ربما . والعيون التي نحبها ، ونتغزل بها ، ونغوت من اجلها ، نخشاها : فهي العيون التي تنفذ كالاشعة السينية الى خفايانا . نضم بين الجوانح الحب والوحدة ولا نريد ان يعرف محبوبنا بالذي نضم ، لا خوفا على انفسنا - طبعلا . بل خوفا عليهم . خوفا عليهم هم . وهل نعود الى الموسيقى ، وهذا البحر ؟ اي سر يخفيان ؟ هل من يفض مكنون النغم او نزع الموج ؟

» اليوم قارنت جاكلين نفسها بالسيدة العراقية التي اضحت حديث الجميع . لفظت اسمها خطأ : لونا ، بدلا من لمى او ، كما يلفظه الاجانب ، لوما . وضحك فرناندو : لونا ، لونا ، القمر ، عرفت الآن سر الجنون ! ولم يهمني ان اصحح الخطأ . بل ، لم يكن ثمة خطأ .

ألا يحق لنا ان نخلط بين جمال الشفاء ، والقمر ، والجنون ؟ ذلك ايضا من فعل الموج -
هذا الموج المتوسطي الرهيب الفتنة . أتدري ان شعراء العرب القدامى كانوا يعشقون
اسماء الاماكن ويكررونها في شعرهم كأنها اسماء الاحبة ؟

قفانبك من ذكرى حبيب ومزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
او هذه الابيات لذلك المسكين الذي لا نعرف عنه الا ان المنذر قتله لانه التقى به في
يوم يؤسه : عبيد بن الابرص . اتذكره ؟

اقفر من اهله مَلحوبُ فالقُطَيَّاتُ فالذَنُوبُ
فراكسُ فثُعَيْلِيَّاتُ فذاتُ فِرْقَيْنِ فالقَلْبِيبُ
فعرْذةُ فقفَا حَبْرٍ »

ولما لم يذكر اسم مكان يصلح قافية للشطر الثاني ، قال : ... ليس بها منهم عريبُ .
« وكيف يذكر شاعر هذه الاسماء كلها اذا لم تكن كلها ، صخورها ورمالها ، جزءا
من دمه ولحمه وعظمه ؟ ولكنه يعتمد ايضا على ما تثيره من عشق مماثل في قلب السامع
ايضا . نحن يكفيننا ان يقال بغداد ، لترقص فينا الاضلع نفسها - رغم ما حدث فيها
من قتل وسحل . واذا قلت ، لى وبغداد ، انسحرت فينا قصائد من الاخيلة . ها يا
عصام ؟ بريك هل انت بريء من كل هذا ؟ ام انك مهندس فحسب ، لا ترن في سمعك
الامكنة اذا ما ذكرت ، وذكرت معها اسماء كلمي وغير لى ؟

« كما قلت ، قارنت جاكليين نفسها بالسيدة لى . قالت : ما الذي تراه في لونا ولا
تراه في ؟ فقلت : الحكاية طويلة يا جاكليين . هل تعرين شيئا عن شعراء العرب ؟
فقلت : وما دخل الشعراء بلونا ؟ وضحك فرناندو مرة اخرى . وقال : يجب ان تكوني
اسبانية لكي تفهمي . اتعرين لوركا ؟ فقلت : ومن هو لوركا ؟ فسقط فكه شبرين ، ثم
جعل يدور ويدور حول نفسه كأن فيه مسّاً ، ويقول : اخبرها ، اخبرها ، اخبرها . . .
اتفقنا على قضاء ليلتين معا في باريس ، لكي اخبرها . غير ان الحديث اخذني جانبا فيما
بعد وقال : لماذا تورط نفسك منذ الآن ؟ ما تراه شيئا في سفينة على البحر ، قد لا تراه
شيئا في غرفة في مونبارناس . . . رحمتك الله يا عبيد . فراكس فثُعَيْلِيَّاتُ فذاتُ فِرْقَيْنِ
فالقَلْبِيبُ - مونبارناس ، بول ميش ، بوليفار راسباي . . . وكلها لم تقفر بعد من عريب . . . »

لى !

لى ! لى !

لقد ضجّت السفينة بلى .

او هكذا ظننت .

في الواقع لم تكن لمى من الذين يملأون الدنيا ضحكا وجورا . لم تكن تتوسط الحلقات ، وترسل النكات وتناغي الذئاب من الرجال . لا لان زوجها يلزمها ، او يراقبها ، فيوجد حبه حولها دائرة سحرية تمنع احدا من اقتحامها . بل لانها من عاداتها ان تنتحي جانبا ، وان تدبر خدها الى الناظرين ، وتستعلي بعنقها الرفيع السامق فوق رؤوسهم . نزع ارسقراطية لم اعلم من اين جاءت بها . فقد سمعت ببغداد من الذين كانوا يعرفونها قبل ذهابها الى اكسفورد للدراسة انها كانت دائما كثيرة الكبرياء ، بحيث يخشى الاحتكاك بها الا من كان يعرفها معرفة صميمية . غير ان اكسفورد اضافت الى كبرها كبرا ، والى انفتها انفة . ولكنها في الوقت نفسه كبرياء تذوب في الخجل ، وتتلشى عندما يستثار همها . لقد كانت كمن يجتذب عابري السبيل ، ثم يوقفهم عطشى على بابه ، ولا يتذمرون . العطش . غريب ! العطش يذكرني دائما بلوى . حتى اسمها يحرك اغوار العطش في . وقد كان حبنا عطشا وبقي في جفاف العطش . تنتفخ من شرب الماء ، ولا تروى : عطش الهى ، يقحمك رغم تبذللك كله في زمرة المتصوفين .

وقد ضجّت السفينة بلوى ، لانها اثار الاهتمام بجمالها ، ولم تقترب من احد بما يكفي لازالة الاهتمام . وقد سألني عنها كل من تكلمت معه . أ من العراق ؟ أ من بغداد ؟ وبغداد كلمة سحرية للعرب وغير العرب . وديع عساف راح في الحال يتغنى بعيون المها ، وعيون الأطباء ، وعيون الاعراب : الحدقات الواسعات ، والخور المجنن الشعراء والصعاليك والخلفاء . واعترف لى جهرها بانه يتصيداها في الصباح لانه يتفاعل بالعيون السود والرقاب المشوقة . وأميلييا فرنيزي سألتني عنها . وفعلت بغداد ولمى في خيالها معا : الجوارى والحريم وبنات السلطان ، وهل عشق السندباد يوماً ؟ آه ، كان السندباد لا يعرف الحب ، لانه بحار . والا فكيف يترك لمى ويستسلم لاحضان البحر ؟ وجاكلىن سألت عنها : اتحب زوجها بهذا المقدار ؟ الجميلة لا تحب ، زوجها او غير زوجها ! جاكلىن ، لم القسوة هذه ؟ مسيو عصام ، الجميلة هي النرجس . هي التي ستموت يوما عطشا لانها لا تستطيع النهل من جمالها . اما فرناندو غومذ ، الاسباني ، الذي كان رفيق وديع في القمره ، فكان يضحك وترتفع بطنه وتنخفض لضحكته . العرب والاسبان من دم واحد : هكذا يقول . والعرب والاسبان ، يقتلون من اجل المرأة ، ويقتلون المرأة ، عشقا وغيرة وشرفا . والعرب والاسبان وحدهم ، وحدهم دون غيرهم ، يعرفون عبادة الجمال في المرأة : في استطاعتهم وحدهم ان يعيشوا فيها ويموتوا فيها ويتركوا كل ما هو ليس منها لغيرهم . فضيلة ورذيلة معا ، يا سنيور عصام . اما السنيورينا لمى فلن يكون لجمالها من نهاية الا المأساة . ولم يعلم احد بالذي بيني وبين لمى .